الفصل الأول

حياة السّباعي

- ولادته ونشأته
- أسرته.
- مراحل حياته.
- طلبه للعلم.
- عمله في التدريس.
- السباعي في الجامعة.
  - إنشاء كلية الشريعة
- أبرز صفاته القيادية:
  - حب العلم والقدرة في الخطابة.
  - الشجاعة والجرأة والإقدام.
  - حب الجهاد.
  - الحلم والسماحة.
  - الصبر والتحمل.
- من سماته وصفاته:
  - الأخوّة والبذل.

obeikandl.com

- القدوة الحسنة.
- عذوبة النفس وشفافية الذوق.
- التزام الحق.
- عزّة النفس.
- تأثيره في إخوانه وشدّة حبهم له.
- سرعة البديهة والنكتة الحاضرة.

obeikandl.com

ولاته ونشأته :

ولد الدكتور مصطفى حسني السباعي عام ١٩١٥ في مدينة حمص بسورية، ونشأ في أسرة علمية عريقة هي من أكرم الأسر الحمصية وأغناها بالعلم والعلماء، منذ مئات السنين. وكان والده وأجداده يتولون الخطابة في الجامع الكبير بحمص جيلاً بعد جيل. وقد تأثّر في أول نشأته بأبيه العالم المجاهد والخطيب البليغ الشيخ حسني السباعي عليه رحمة الله . . فلقد كان لأبيه مواقف مشرفة ضد الأعداء المستعمرين فكان مقاوماً لهم بشخصه وماله وجهده، وكان في طليعة العاملين والمؤيدين للحركات الوطنية، وقد ساهم بقسط وافر في المقاومة المسلحة ضد الفرنسيين، وفي قيادة المجاهدين الثائرين ضد الاستعمار والطغاة المستبدين. . كما كان رحمه الله من محبّي الخير وأحد مؤسسي الجمعيات الخيرية الإسلامية والمشاريع الاجتماعية، مغيثاً للملهوفين، مدافعاً عن المظلومين والبائسين. . فكان لذلك أثر كبير في نشأة مصطفى السباعي منذ طفولته ويفاعته. ولقد رافقت نشأته أيضاً ظروف قاسية كانت تمرّ بها البلاد فكان لذلك كله أثره في دفعه منذ حداثته في طريق الكفاح الوطني ضد أعداء البلاد من المستعمرين والعملاء، وفي طريق الدعوة والجهاد لإعلاء كلمة الله . .

وكان يصحب أباه إلى مجالس العلم التي كان يعقدها مع لفيف من فقهاء حمص وعلمائها الأخيار. . وكان من بينهم الشيخ طاهر الريس، وسعيد الملوحي، وفائق الأتاسي، وراغب الوفائي، حيث كانوا يتدارسون

الفقه ويتناقشون في أدلة مسائله . . وكان مصطفى على صغر سنه يحضر مع أبيه هذه المجالس التي كان لها أثرها في تكوينه العلمي . وقد شجعه أبوه لدراسة علوم الشريعة وبخاصة دراسة الفقه المقارن ، فصار رحمه الله عالماً فقيهاً من نوادر العلماء والفقهاء[1] ، وكان فيما بعد المشجع الأول للشيخ مصطفى على خطته ومنهجه في الجهاد والإصلاح ، ومحاربة البدع .

أسرته :

كان للدكتور مصطفى السباعي خمسة إخوة هم : نصوح وخالد وعبدالخالق وخير الله وعبدالرحمن ، الذي ذهب مع أخيه مصطفى للجهاد في فلسطين ولم يكن يومها يتجاوز السدسة عشرة سنة . . وكان شقيقه الأكبر الأستاذ نصوح السباعي علماً من أعلام الدعوة في سورية ، وكان رئيساً لمركز حمص قبل حل جماعة الإخوان المسلمين[2] .

وقد تزوج الدكتور مصطفى السباعي في دمشق ابنة المرحوم عبدالوهاب الطباع ، وعندما تمت الخطوبة أخبر الخاطبون أهلها أن السباعي مشغول في معظم أوقاته بأعباء الدعوة ليكونوا على علم بأوضاعه فوافقوا وتمت الخطبة . .

يقول الشيخ علي الطنطاوي عن هذه الخطبة :[3] «كانت حفلات الزواج الكبيرة كأنها ناد أدبي أو وطني ، تلقى فيها الخطب الوطنية

---

(١) محمد بسام الأسطواني : مجلة حضارة الإسلام ، الأعداد ٤ ، ٥ ، ٦ ، عام ١٩٦٤ ، ص١٢٥ .

(٢) الدكتور حسن هويدي : مقابلة معه في ١٩٩٣/١١/٣٠ .
وعدنان الطباع . . مقابلة معه في ١٩٩٣/١١/٦ .

(٣) علي الطنطاوي : ذكريات جـ٤ ، ص٢٩٧ .

والاجتماعية والعلمية، ويعلو منبرها أكابر القوم، ولست منهم، ولكني خطبت في عشرات منها، أذكر منها الاجتماع الضخم، يوم عقد أخينا في الله الخطيب البليغ المجاهد، الذي احتمل مرضه في سبيل الله الشيخ الدكتور مصطفى السباعي رحمه الله».

وزرقه الله ثلاث بنات وثلاثة أبناء هم: حسّان ومحمد وعامر[٤]. . وعندما انتقل السباعي إلى رحمة الله كان أولاده صغاراً.

مراحل حياته:

كانت حياة السباعي رحمه الله تختلف عن حياة الكثيرين من الناس. . فقد كانت حياة تختلف عن مراحل حياة الإنسان التي تعارف الناس عليها ـ من طفولة وشباب وكهولة ـ لأنها مراحل انجازات تمّت نتيجة سعي دائب وكفاح مستمر وجهاد متواصل. . وحتى نكون على بيّنة منها فسوف نوجزها بالمراحل التالية:

أولاً ـ مرحلة النشأة وطلب العلم: فقد نشأ السباعي في رعاية والده المربي الفاضل والعالم المجاهد، وكان يصحبه إلى مجالس العلم، ويشجعه على دراسة علوم الشريعة.

ثانياً ـ مرحلة فترة الاستعمار: رافقت نشأة السباعي منذ الصغر ظروف قاسية مرّت بها البلاد من استعمار وفساد وتخلّف. . فتمرّد على هذا الواقع السيء، وقام يجمع زملاءه وأصدقاءه ضد أعداء البلاد، وضد المظالم والانحرافات التي أوجدوها. . وأخذ هو ورفاقه يوزعون المنشورات داعين فيها إلى محاربة الاستعمار ومظالمه. وكان يخطب الجمعة ويقود المظاهرات مع رفاقه داعياً إلى مقاومة الاستعمار.

---

(٤) الدكتور حسن هويدي: مقابلة معه في ١٩٩٣/١١/٣٠.

وفي عام ١٩٤٥ عندما بدأت المقاومة المسلحة ضد الاحتلال الفرنسي كان للسباعي وإخوانه دور في هذه المقاومة.

ولما ذهب إلى مصر للدراسة في الأزهر اشترك مع إخوانه أبناء مصر في العمل الوطني وقيادة المظاهرات ضد الاحتلال البريطاني.

ثالثاً ـ مرحلة تأسيس الدعوة: بعد عودة السباعي من الدراسة في مصر اتصل بعدد من الدعاة وقادة الجماعات الإسلامية في دمشق وحلب وحمص وحماة ودير الزور واتفقوا جميعاً على توحيد هذه الجماعات وأعلنوا قيام جماعة الإخوان المسلمين في سورية، واختاروا السباعي أول مراقب عام للإخوان سنة ١٩٤٥.

رابعاً: مرحلة بداية الاستقلال: كان للاستعمار الفرنسي في سورية آثار اجتماعية وسياسية سيئة، وكان من أبرزها انتشار الجهل والفساد والتخلف والمظالم الاجتماعية.. وقد تحسس السباعي وإخوانه هذه المظالم والمآسي ونادوا بالإصلاح السياسي، وبدأوا كفاحهم الوطني في الدعوة إلى إقامة حكم صالح يزيل مساوىء الاستعمار، ووجهوا النصح إلى الحكومات الوطنية، وشاركوا في الانتخابات النيابية، وقاوموا الانحراف في الحكم والإدارة والسياسة.

وفي الجانب الاجتماعي قاموا بخدمات اجتماعية جليلة.. فتبنّوا حركة العمال، وعملوا على رفع مستوى القرى والفلاحين، وأنشأوا المدارس والمعاهد والأندية الرياضية، وأقاموا المخيمات الكشفية ومراكز الفتوّة، وكانوا سباقين في أعمال التعاون الخيري.

خامساً ـ مرحلة الجهاد في فلسطين: كان للسباعي دور بارز في أحداث القضية الفلسطينية، فكان يعتبرها قضية عقيدة ومقدسات

مهددة.. ولما بدأ القتال عام ١٩٤٨، قاد كتيبة من إخوانه وشارك بنفسه في معارك منطقة القدس.

سادساً ـ مرحلة النيابة ومعركة الدستور: في عام ١٩٤٩ جرت انتخابات نيابية لاختيار مجلس نيابي تكون أولى مهامه وضع دستور للبلاد.. واشترك السباعي وعدد من إخوانه في الانتخابات.. وقاد السباعي معركة الدستور تحت قبة البرلمان، وتمكن هو وإخوانه من استبعاد الطابع العلماني عن الدستور، وفرض الطابع الإسلامي.. وبعد مناقشات استمرت ثلاثة أشهر تم وضع مواد إسلامية في صلب الدستور ومن أهمها «أن الإسلام دين الدولة الرسمي»..

وكان هذا الإنجاز هزيمة للعلمانية والعلمانيين، الذين أوجدهم الاستعمار الفرنسي وأوكل إليهم مهمة المحافظة على الصبغة العلمانية للبلاد وإبعاد الطابع الإسلامي عن كل أمر من أمور الحياة.

سابعاً ـ مرحلة الانقلابات العسكرية: كان السباعي أشد الناس بغضاً للانقلابات العسكرية، لإيمانه أن السبيل الوحيد للإصلاح أياً كان هو الفكر الحر والمنطق العلمي المبني على الحجة المقنعة.. ولهذا فقد وقف السباعي ضد هذه الانقلابات وطالب العسكريين بإعادة الحياة النيابية للبلاد.. وتحمّل في سبيل ذلك الأذى والنفي من البلاد.

ثامناً ـ مرحلة تأسيس كلية الشريعة: كان للسباعي دور كبير في تثبيت دعائم الإسلام في بلد كرّس الاستعمار الفرنسي جميع طاقاته لإبعاده عن الإسلام وتوجيهه إلى العلمانية.. فكان السباعي أحد العلماء البارزين الذين عملوا على إدخال مادة التربية الإسلامية إلى المناهج المدرسية ـ بعد أن أبعدها الاستعمار عن المناهج ـ ثم اعتمادها كمادة أساسية تحسب في نتائج الامتحانات، كما تمكنوا من زيادة عدد الساعات

لتدريس هذه المادة.

وكان للأستاذ السباعي الجهد الأكبر في إنشاء كلية الشريعة بجامعة دمشق.. فقد عمل مع عدد من إخوانه في الجامعة على إنشائها، وبذل من الجهد والمساعي الشيء الكثير حتى تمكن من هذا الإنجاز الذي انتزعه انتزاعاً في بلد بذل الاستعمار الفرنسي أقصى جهوده لإفساده وإبعاده عن الإسلام، وغرس فيه قبل خروجه منه ركائز علمانية لتحافظ على ثقافة المستعمر وقوانينه.. فجاء إنشاء كلية الشريعة ميلاداً جديداً للفكر الإسلامي في البلاد..

وتوّج السباعي هذا الإنجاز المبارك. فعمل بالتعاون مع إخوانه الذين شاركوه إنشاء كلية الشريعة، على إنشاء موسوعة للفقه الإسلامي تهدف إلى إحيائه وصياغته صياغة جديدة، وتبويبه وتصنيفه، على أحدث الأساليب، لتكون مرجعاً لكل عالم وفقيه ولتلبي حاجة التشريع.

تاسعاً ـ مرحلة المرض ومغالبة الآلام: كان السباعي رحمه الله يحمّل جسمه وأعصابه الكثير من الإرهاق والعمل المتواصل في سبيل الله، مما جعل هذا الجسم ينوء بالأثقال ويقع فريسة للمرض..

ومع شدة المرض فلم تخبو شعلة نشاطه أو تدفق حيويته.. فكان يلقي دروسه الجامعية، ومحاضراته التوجيهية.. وقد ألقى خلال فترة مرضه أهم محاضراته العلمية، وألّف معظم كتبه وأبحاثه.

وضرب السباعي خلال مراحل مرضه أروع آيات الصبر مع ما فيه من الرضا والتسليم لقضاء الله، فكان نموذجاً فريداً في طاعته لربّه والتسليم لقضائه.

وسوف يأتي الحديث عن مراحل حياته بالتفصيل في فصول هذا

الكتاب إن شاء الله.

طلبه للعلم:

بدأ السباعي منذ طفولته بحفظ القرآن الكريم وتلقي مبادىء العلوم الشرعية على أبيه حتى بلغ السن التي تخوله دخول المدرسة الابتدائية، حيث التحق بالمدرسة المسعودية(٥).

وبعد أن أتم فيها دراسته بتفوق ظاهر، التحق بالثانوية الشرعية حيث أتم فيها دراسته عام ١٩٣٠ بنجاح باهر لفت أنظار كبار أساتذته الذين كانوا يتوقعون له مستقبلاً علمياً زاهراً، لما كان يتمتع به من الذكاء المبكر والنباهة المتوقدة والبديهة الحاضرة، والنشاط المتوثب.. فقد كان رحمه الله منذ صغره حركة دائبة لا تعرف الكلل ولا الملل ولا الفتور، فكان لذلك محط إعجاب أساتذته وأقرانه وجميع معارفه..

ولم يقتصر في دراسته الشرعية على المناهج المدرسية، وعلى حضور مجالس العلم التي كان يعقدها والده مع كبار الفقهاء والعلماء.. فكان بالإضافة إلى ذلك يتردد على غيرهم من علماء حمص أمثال المشايخ: طاهر الأتاسي مفتي حمص في ذلك الوقت، وزاهد الأتاسي، ومحمد الياسين وغيرهم، ويتلقى عنهم العلوم الإسلامية المختلفة.. كما أنه كان مولعاً بالمطالعة والبحث في كتب الأدب والثقافة المختلفة. وفي أثناء ذلك كان يلقي خطبة الجمعة في كثير من الأحيان في الجامع الكبير نيابة عن أبيه وهو فتى لم يتجاوز الثامنة عشرة، مما جعله يحتل مكانة مرموقة في بلده، ويحوز إعجاب المصلين الذين كانوا يتوقون لسماع خطبه

---

(٥) المدرسة المسعودية.. مدرسة ابتدائية خاصة أسسها الشيخ طاهر الرئيس في حمص.

القوية الحماسية التي طالما ألهب فيها المشاعر، وأيقظ العقول والقلوب بجرأة نادرة، وعرض جذّاب وأسلوب مثير وفكرة واضحة..

ورأى بعد ذلك أن يتابع دراسته الشرعية، فسافر إلى مصر والتحق بقسم الفقه بالجامعة الأزهرية في عام ١٩٣٣، فنال تقدير أساتذته هناك لما أبداه من تفوق جعل اسمه على ألسنة أساتذته وزملائه. ثم انتسب إلى كلية أصول الدين، ونال إجازتها بتفوق، والتحق بعدها بقسم «الدكتوراة» لنيل شهادتها، في التشريع الإسلامي وتاريخه، ولكن الإنجليز قبضوا عليه وأخرجوه من مصر في عام ١٩٤٠ لأنه كان يحرض الشعب المصري للثورة ضد المستعمر البريطاني(٦).

وفي عام ١٩٤٩ ذهب إلى مصر بعد أن أعدّ أطروحته العلمية «السّنة ومكانتها في التشريع الإسلامي» للحصول على درجة الدكتوراه.. ونال درجة الامتياز بعد أن ناقشتها لجنة من كبار علماء الأزهر. وقد حاز إعجاب اللجنة التي ناقشته بدقته العلمية واستيعابه للموضوع من كل جوانبه، ولما أبداه من دفاع عن السّنة النبوية التي كانت مستهدفة من قبل أعداء الإسلام، وبيّن أخطاء المستشرقين وتلاميذ المستشرقين الذين حاولوا تشويه صورة الإسلام، فأعادها نقية كما كانت، وردّ كيدهم إلى نحورهم. وقد أصبح هذا الكتاب القيّم من أهم المراجع العلمية في موضوعه، ومن أمضى الأسلحة في الدفاع عن السّنة ومكانتها في التشريع الإسلامي لكل باحث وعالم وطالب علم(٧).

---

(٦) عبدالله الطنطاوي: كتاب «الشيخ مصطفى السباعي» ص١٤.

(٧) محمد بسام الأسطواني: مجلة حضارة الإسلام، الأعداد ٤، ٥، ٦، عام ١٩٦٤، ص١٢٧.

عمله في التدريس:

أحبّ الدكتور السباعي مهنة التدريس، رغبة منه في نشر العلم وتربية النشء وإعداد الأجيال إعداداً يناسب ما ينتظرها من مسؤوليات وأعباء لتحرير البلاد من الاستعمار وآثاره، وليساهموا في بناء مجتمعهم على أسس متينة من العلم والأخلاق والشعور بالمسؤولية. . لذلك انخرط في سلك التعليم فكان يدرّس اللغة العربية والتربية الدينية في مدارس حمص الثانوية، ثم انتقل إلى دمشق وعمل مع فئة من إخوانه على إنشاء مدرسة تحقق مايصبو إليه من أهداف في التربية والتعليم فأسس «المعهد العربي» في دمشق، والذي انضمت إلى إدارته فيما بعد جمعية التمدن الإسلامي، رغبة في توسيع المشروع ودعمه، وأصبح اسم المعهد «المعهد العربي الإسلامي»، وفتحوا له فروعاً في أكثر المحافظات. وكان السباعي رحمه الله أول مدير لهذا المعهد، الذي خرّج في زمانه عدداً كبيراً من الطلاب، ممن شغلوا فيما بعد، وظائف تدريسية وغيرها من مختلف الوظائف والأعمال، وكانوا خيرة ما انتجته المدارس في سورية علماً وخلقاً وشعوراً بالمسؤولية[٨].

السباعي في الجامعة:

إن مؤهلات السباعي الفطرية وإمكاناته العلمية، وطاقاته المتعددة، كانت تؤهله لمهمة كبرى، فقد وقع عليه الاختيار، ليكون أستاذاً في كلية الحقوق بجامعة دمشق. وعُيّن فيها منذ عام ١٩٥٠ فكان من ألمع أساتذة الجامعة في فن التدريس، وخصب الانتاج العلمي. ولكن هذا المنصب

---

(٨) مجلة حضارة الإسلام، الأعداد ٤، ٥، ٦، السنة الخامسة عام ١٩٦٤، ص١٢٨.

الجديد، لم يكن ليستوعب إلا جزءاً من نشاطه وطاقاته المتوقدة. . كما أن طموحه العلمي وشعوره بالمسؤولية نحو دعوته وفكرته وبلاده، كان أكبر من أن يقنعه بما وصل إليه، ففكر مع بعض إخوانه الأساتذة في إنشاء كلية خاصة مستقلة للشريعة الإسلامية، تكون إحدى كليات الجامعة، وتعمل على تخريج علماء على أرفع المستويات العلمية والفكرية، وأراد أن يثبت بذلك جدارة التشريع الإسلامي لتحقيق الخير والتقدم والازدهار لأمتنا. . وقد نجحت مساعيه رغم العراقيل والصعوبات التي وضعت في طريقه، لإخراج هذه الكلية إلى عالم الوجود.

إنشاء كلية الشريعة:

تم تأسيس كلية الشريعة عام ١٩٥٥، وكان السباعي أول عميد لها إلى جانب قيامه بالتدريس في كلية الحقوق، واضطلاعه بكافة المسؤوليات الأخرى الملقاة على عاتقه كداعية وصاحب فكرة. وعمل السباعي منذ تسلمه عمادة الكلية بالتعاون مع إخوانه من الأساتذة الجامعيين، الذين يؤمنون بفكرته، على إرساء دعائم هذه الكلية على أمتن الأسس العلمية والفكرية والأساليب الحديثة، لتحقيق الهدف المنشود، في تخريج أجيال من العلماء الدعاة، والفقهاء والمدرسين، الجديرين بحمل لواء الفقه الإسلامي ونشره والتمكين له. .

يقول الأستاذ مصطفى الزرقاء عن دور السباعي في إنشاء الكلية:[٩] «لما أنشئت كلية الشريعة في جامعة دمشق كان للأستاذ الدكتور مصطفى السباعي الجهد الأكبر في مساعي إنشائها، وفضل ميلادها الذي استكملت به جامعة دمشق ركناً كان ينقصها، وعهد بالإشراف عليها إلى

---

(٩) مصطفى الزرقا: مجلة حضارة الإسلام، الأعداد ٤، ٥، ٦، عام ١٩٦٤، ص٩.

لجنة ألّفت بقانون وأعطيت سلطات مجلس الجامعة بالنسبة إلى بقية الكليات، وأعطيت علاوة على ذلك سلطة تعيين الأساتذة للتدريس في الكلية، وذلك خلال فترة انتقالية مدتها أربع سنوات..

وكنا والأستاذ السباعي في هذه اللجنة، وكانت الكلية قد ضاقت بإنشائها في الجامعة صدور أناس كثيرين يحرصون على وضع العصي في عجلاتها، وزرع طريقها بالأشواك لعلها تتعثر فتسقط عاجزة عن المسير من الإعياء تحت ثقل الأعباء.. وكانت أمامها مشكلتان:

الأولى: مشكلة العمادة التي ينبغي أن تكون لأحد كبار الأساتذة في الكلية، ولم يكن في الكلية أساتذة بعد.

والثانية: مواجهة الضغط المتزايد على أعضاء لجنة الإشراف على الكلية من شتى الأصناف طمعاً في تعيين بمرتبة عليا رأساً من مراتب الأستاذية في الجامعة، ولاسيما ممن لا يحملون شهادات علمية تؤهلهم لهذا المقام الجامعي.

ولكن نقطة الارتكاز في كل هذه المقاومة الحكيمة يجب أن تبدأ من إيجاد أستاذ جامعي لائق يقبل أن يترك كليته ويأتي عميداً لكلية الشريعة، دون أن يتطلب قفزة من مرتبته إلى مرتبة أعلى..

وكان الدكتور السباعي قد تم تعيينه قبل فترة قصيرة أستاذاً أصيلاً لمادة الأحوال الشخصية في كلية الحقوق. وإني لأعترف أنني والأستاذ الدكتور معروف الدواليبي من أساتذة الشريعة الإسلامية في كلية الحقوق لم نقبل أن نضحّي بمراكزنا في كلية الحقوق وننتقل إلى كلية الشريعة لاستلام عمادتها، لاعتبارات عديدة تجعل هذه التضحية ثقيلة علينا، ولكن الذي أقدم عليها غير مبال مهما كانت النتيجة عندما امتنعنا نحن وضحّى بمركزه

الجديد الثابت في كلية الحقوق إلى مركز في كلية الشريعة لم يكن من الممكن إذ ذاك أن يعرف مصيره إنما هو الأستاذ الدكتور مصطفى السباعي رحمه الله. فهو الذي قبل أن ينتقل بمرتبته وراتبه دون أن يتطلب مرتبة أعلى وهو في أشد الحاجة إلى زيادة المرتبة، وقال: أريد أن أضرب المثل بنفسي حتى لا يفكر بالمجيء إلى هذه الكلية، إلا من يريد منفعتها لا منفعة نفسه، وأن أجعل من تضحيتي هذه حاجزاً في وجه من يريدون أن يقفزوا إليها من أجل المراتب التي لا تتيسر لهم في سواها.. وهكذا تسلم السباعي عمادة الكلية في المرحلة العصيبة، فسار بها مع اللجنة يشق لها الطريق في خضم الأمواج والأعاصير، بمهارة الربان الخبير، والقائد الشجاع المؤمن المخلص الذي يبتغي رضى الله قبل هواه، ويريد بناء منزلته عنده قبل مرتبته في الجامعة..

وقد وهب الكلية في تلك المرحلة من روحه وحيويته وعلمه وتوجيهه أثراً لا ينفذ، يتوارثه من يتعاقبون عليها أساتذة وطلاباً، كما كان له فيها تأسيس مشروع موسوعة الفقه الإسلامي الذي تفرع من كلية الشريعة أيام عمادته وكان رئيس لجنة الموسوعة زمناً لا ينسى فيه نشاطه وجهوده الكبرى».

وكان السباعي يرى أن مناهج كلية الشريعة لا يجوز أن تقتصر على تلقين العلوم الجافة، وأن غاية الكلية ليست تخريج العلماء والفقهاء فحسب، وإنما كان يريد أن يكون خريجو الشريعة علماء ودعاة..

والدعوة فن وروح، وإذا كان العلم يصنع العلماء، فإن التربية والتوجيه يصنعان الدعاة، ولذلك عني رحمه الله، بمناهج التربية والتوجيه في الكلية، فبالإضافة إلى الروح التوجيهية التي كان يحرص على بثها في

كافة المناهج العلمية، فقد عمل على توجيه الطلاب توجيهاً مباشراً، فأحدث درساً أسبوعياً سماه «قاعة البحث» وتولى بنفسه إدارة هذه القاعة، وإلقاء محاضراتها التوجيهية، وكان حريصاً على عدم الانقطاع عن قاعة البحث لأي عذر أو سبب ولو كان الألم الشديد والآلام المبرحة.

وكان إخوانه وزملاؤه يعجبون من همته وحيويته، ، وإخلاصه واندفاعه لأداء الواجب، رغم ما يعانيه من الآلام التي تنوء بها الجبال الراسيات. . وكان هؤلاء يرجونه بإلحاح أن لا يُحمّل نفسه ما لا تطيق ويحاولون ثنيه عن عزمه إشفاقاً عليه، لما يعلمونه من شدة الآلام التي لم تكن تفارقه لحظة واحدة في مرضه الأخير، ونظراً لما كانت هذه المحاضرات تكلفه من جهد وتعب وإرهاق لاسيما في أيام الشتاء الباردة. ولكنه رحمه الله لم يكن يصغي لذلك وكان يقول: «خير لي أن أموت وأنا أقوم بواجبي نحو الله، من أن أموت على فراشي، فالآجال بيد الله، وإن ألمي من حرمان الطلاب من دروس التوجيه أشد وأقسى من آلامي الجسدية، وحسبي الله وعليه الاتكال»[١٠].

أبرز صفاته القيادية:

كان السباعي يتمتع بصفات قيادية قد لاتجد مثلهاحتى في البارزين من الرجال. . بل كانت قيادة الرجال مجتمعة في شخص السباعي. . لذلك سلّمت له كل القيادات الإسلامية وغير الإسلامية. . فعندما رجع من الأزهر بعد مناقشة رسالة الدكتوراة، خرجت دمشق والمحافظات بأسرها لاستقباله[١١].

---

(١٠) عبدالعزيز الحاج مصطفى: كتاب «مصطفى السباعي رجل فكر»، ص٢٥.

(١١) مقابلة مع السيد عيد البغا (أبو سليم) في ١٧/١١/١٩٩٣.

وكان السباعي يتصل بكل العاملين للإسلام داخل البلاد وخارجها، وكان كريماً لا يخلو بيته من الضيوف على مرّ الأيام. . كان حرصه على الدعوة ليس له نظير، وكان يسبق رأيه رأي إخوانه[١٢]، كان يتفاعل مع الدعوة ويتحرّق لأي شيء يمس الدعوة أو الإسلام، كان عنده دأب في متابعة القضايا ويحب سرعة الإنجاز. . كان مع إخوانه مثال التواضع، ومع من يحاول أن يمس الإخوان ينقض عليه مثل الصقر[١٣]. . كان يتتبع أحوال من يهمه أمرهم في المجتمع، ويسأل كل واحد منهم عن الأمور والمشاكل التي تهمهم. . وهذه براعة قيادية[١٤].

ومن صفاته القيادية البارزة:

● **حبّ العلم والقدرة في الخطابة:**

كان السباعي عالماً أديباً وخطيباً مفوهاً. . يحب العلم ويتمتع بأخلاق العالم الواعي الذي لا يُملّ له حديث ولو تحدّث أياماً، وكان مجلسه محبّباً فيه العلم والتوجيه والدعابة. . يقول السيد «أبو سليم»[١٥]: «كان السباعي خطيباً من الطراز الأول الفريد النفيس، ولا أعلم أحداً يوازيه في هذا المجال. . وكانت له قدرة عجيبة على القراءة والمطالعة والبحث، كان يقرأ في كل العلوم والاتجاهات. جاءني في أحد الأيام واختار مجموعة كتب وأخذها معه إلى البيت، وفي اليوم التالي أحضر ثلاثة منها ليبدلها لأنه وجد فيها صفحات بيضاء، ولما فتحتها وجدت تأشيرات بالقلم على كثير من الصفحات، وعلمت أنه قرأ جميع الكتب في تلك الليلة. .

(١٢) مقابلة مع الدكتور حسن هويدي في ١٩٩٣/١١/٣٠.

(١٣) مقابلة مع الأستاذ عادل كنعان في ١٩٩٣/١٢/٢٠.

(١٤) مقابلة مع السيد «أبو سليم» في ١٩٩٣/١١/١٧.

(١٥) مقابلة مع السيد «أبو سليم» في ١٩٩٣/١١/١٧.

وكانت بديهة الكتابة والقدرة عليها عنده عالية وفي كل المجالات. . فعندما أصدرنا جريدة المنار والشهاب في دمشق، كانت أحياناً تبقى عدة زوايا لم يكتب فيها أحد، فنتصل به ونقول له إن الزاوية الاقتصادية مثلاً أو غيرها لم تكتب، فيكتب لنا المقالات بسرعة فنملأ بها جميع الفراغات. . كما أن قدرته على الحديث كانت أيضاً عالية، حتى أن الصحفيين كانوا يقولون عن المجلس النيابي أن النائب الوحيد الذي لم نتمكن من كتابة كل ما قاله هو السباعي».

ويقول الدكتور محمد أمير العرقسوسي[١٦]: «كان السباعي خطيباً ممتازاً. . ومع أن الدكتور عبدالرحمن الشهبندر كان خطيب دمشق الأول، إلا أن السباعي فاقه لأنه كان بحديثه يأسر القلوب ويهز المشاعر. . وكان له جلد ومقدرة على القراءة، وكنا نسهر الليالي بقراءة بعض الكتب الدينية في التراث الإسلامي، ثم نصلي الفجر، ونتناول طعام الفطور، ثم يذهب كل منا بعد ذلك إلى عمله. . وكانت مجالسه رائعة يتعلم منها الإنسان الشيء الكثير. . إلا أنه كان أحياناً حادّ المزاج، ولكنه لم يكن يقصد الإساءة لأحد».

أما الدكتور حسن هويدي فيقول عن السباعي الخطيب[٧]: كان أطلق الخطباء لساناً وأفصحهم خطابة. . وفي حفل التأبين الذي أقامته له جامعة دمشق بعد وفاته، كانت كلمة الدكتور محمد الفاضل عميد كلية الحقوق أبلغ كلمة ومع هذا فقد التفت إلى صورة السباعي وقال: «وأنت ميّت أبلغ مني وأنا حيّ».

---

(١٦) مقابلة بين الأستاذ رضوان دعبول والدكتور محمد أمير العرقسوسي في ١٠/١١/١٩٩٣.

(١٧) مقابلة مع الدكتور حسن هويدي في ٣٠/١١/١٩٩٣.

● **الشجاعة الجرأة والإقدام:**

كان السباعي ذا هيبة.. شجاعاً جريئاً في قول الحق.. وكانت هذه السّمة بارزة في شخصيته تجاه الأعداء والظالمين.. فكان أبيّاً شجاعاً عزيز النفس، لم يحن هامته طول حياته إلا لخالقه العزيز الجبار، ولم يطأطىء رأسه لطاغية ولا ظالم.

إن جرأة السباعي في الحق وثباته عليه لأمر من الشهرة والذيوع بحيث يكاد يكون طابعه المميز وخلقه الأصيل، وإن له في ذلك لمواقف ومواقف، مجاهداً في الساحات العامة، ونائباً في المجلس النيابي، ومكافحاً للاستعمار، ومنافحاً عن الأمة وتشريعها وحقوقها وكرامتها..

وقد أدّى به ذلك إلى النفي والسجن والإبعاد منذ كان طالباً في الأزهر الشريف إلى أن أصبح علماً من أعلام السياسة والجهاد، ولم يهن له عزم، ولا لانت له قناة، وما زاده عتوّ الباطل وأهله إلا صلابة في الحق ونصره، ولا تغيرت طبيعة نفسه المرحة المتفتحة، فما كان يلمس منه في المنفى والمعتقل تجهم نفس أو انقطاع أمل أو فتور في عزمه.

ففي عهد أديب الشيشكلي أواخر عام ١٩٥٢، تعرض السباعي لمضايقة السلطة الحاكمة التي فرضت عليه رقابة مزعجة تحصي عليه حركاته وسكناته.. ولم يكتف الشيشكلي بهذه المضايقات ولكن اشتط في ذلك وطلب من أساتذة الجامعة وكبار الموظفين أداء قسم الولاء لعهده والدخول في الحركة التي أسسها باسم «حركة التحرير»، ولكن السباعي الذي تعشق الحرية وعاش يدافع عنها بلا هوادة رفض الانصياع للأوامر وأبى أداء القسم لعهد غير شرعي، فغضب الشيشكلي وأصدر مرسوماً بتسريحه من الجامعة، وأبعده عن البلاد، فاختار لبنان وبقي فيها حتى أواخر عهد الشيشكلي.

ويصف الدكتور حسن هويدي موقفاً من مواقف الجرأة للدكتور السباعي فيقول[١٨]:

«وأذكر مرة، حينما أسّس كلية الشريعة، وقد أوجس من أكبر المسؤولين خيفة، وأحسّ أن في الأمر ريبة، بعد الوعد القاطع، والعهد المبرم، فثار ثورة الأسد الهصور، وغضب لله غضبة مَنْ لا يخشى لومة لائم.. واندفع في تلك الثورة العارمة إلى حيث يبغي مجاهداً مصرّاً، فلم يرجع إلا بالنصر والظفر، وأسّست كلية الشريعة، وأعظم به من نصر وظفر، وخير باق ما بقي الدهر إن شاء الله..

هكذا تكون ثورة الرجال قوّة وإخلاصاً، ونفعاً عامّاً، وإيثاراً وبعد نظر، وليست ثورة من أجل المطامع أو الشهوات. إنها ثورة الرجال وتضحيتهم بالنفس والمال، في سبيل سعادة الناس.. إنها هي التي تخرج كنوز النفس البشرية، فتجعل منها المآثر والعبر، ومحطّ النظر لجميع البشر».

● **حب الجهاد:**

نشأ السباعي على حب الجهاد، وكان يرى الوطن العربي وطناً واحداً، والعالم الإسلامي أمة واحدة، وعليه أن يحارب الاستعمار أينما وجد.. ومنذ صغره بدأ بمقاومة الاحتلال الفرنسي لبلاده..

ومنذ برزت مشكلة فلسطين أخذ السباعي يوليها اهتماماً كبيراً، فكان يعقد الندوات، ويلقي الخطب والمحاضرات، وينبّه الشعب السوري إلى الخطر الذي يحدق بالأمة الإسلامية.. وفي عام ١٩٤٨ أخذ يجوب المدن والقرى ويحض الشعب على مناصرة المجاهدين.. ولم يقف عند

---

(١٨) عبدالعزيز الحاج مصطفى: كتاب «مصطفى السباعي رجل فكر..»، ص١١.

هذا الحد، وإنما قاد الشباب إلى القدس للدفاع عنها، وكان في مقدمتهم في المعارك..

يقول الأستاذ إميل الغوري واصفاً مشاركة الأستاذ السباعي في إحدى المعارك[١٩]: «وقبيل خوض المعركة الخطيرة، حاولنا إبقاء الشيخ مصطفى السباعي في مقر القيادة، وهو بعيد نسبياً عن أرض المعركة، كما سعيت شخصياً (للاحتيال) على الشيخ مصطفى وإقناعه بالبقاء في القيادة للقيام بأعمال خطيرة مهمة.. ولكنه أبى ورفض وأصرّ على خوض غمار المعركة، مهما كلفه الأمر، وقال إنه لم يحضر من دمشق إلا بغية الاستشهاد في سبيل الله والوطن.

ولما لم نستطع ثني الشيخ مصطفى عن عزمه، وافقناه على ما يريد، واخترنا مركزاً يشغله وأترابه، ولكنه لم يقبل ذلك، وصمم أن يشترك بنفسه في الطليعة. فكان له ما أراد، فخاض الشيخ مصطفى ورفاقه المعركة ببطولة عظيمة، إلى جانب إخوانهم الفلسطينيين، وانتهت المعركة بنصر مؤزر للعرب.

وبعد انتهاء المعركة، رجونا الشيخ مصطفى أن يستريح قليلاً فرفض، فعرضت عليه الانتقال إلى القدس للمساهمة في الدفاع عنها، فقال لي: إني لا أقاتل من خلف أسوار.

وانتقل الشيخ مصطفى ورفاقه، بعد معركة المستعمرات في لواء القدس، وانضم إلى قوات الجهاد المقدس في المنطقة الوسطى. وظل السباعي يجاهد في فلسطين حتى وقعت كارثة ١٥ أيار ١٩٤٨، فاضطر ورفاقه إلى الانسحاب من فلسطين تنفيذاً لأوامر القيادات العسكرية

---

(١٩) مجلة حضارة الإسلام، الأعداد ٤، ٥، ٦، عام ١٩٦٤، ص١٠٣.

العربية النظامية وتعليماتها».

● **الحلم والسماحة:**

كان رحمه الله حليماً سمحاً في تعامله مع الناس، وكان يتحمل الأذى حتى من بعض إخوانه، فيرد عليهم بكلام يزينه الحلم وتصحبه السماحة..

يروي الشيخ محمد المجذوب موقف السباعي من فتنة وقعت في صفوف الجماعة بدمشق فيقول[٢٠]:

«إن أسوأ مالقيه السباعي إنماجاءه عن طريق شباب كانوا أحق الناس ببرّه وحبه، وكان ذلك يوم عاد إلى سورية ليستأنف نشاطه في خدمة الحق، فإذا هو يواجه سلسلة من التدابير حيكت في غيابه للتسلط على الجماعة! إنها محاولة انقلاب بدأت خفية وراء الستور، ثم ما لبثت أن خرجت إلى الملأ تواكبها وتؤرثها تحريشات الصحف المشبوهة، التي لم يعرف لها قط سابق اهتمام بقضايا الإسلام، إلا عند مهاجمة دعاته، والدعوة إلى عداته.

وأشهد.. لقد تحمل السّباعي من ظلم هذه الفئة ـ سامحها الله ـ ما تنوء به كواهل العصبة أولي القوة. وحسبي أن أذكر مشهداً واحداً من هذه المأساة، ولولا خشية الإساءة لمن لا نحب إيذاءهم من إخواننا الأحياء، لوجدت متسعاً لعرض الكثير من هذه المشاهد، التي لا أشك أنها كانت من العوامل التي انتهت به إلى الشلل.

حدث ذلك في دمشق، وفي اجتماع ضم طائفة من قادة الجماعة، بينهم من مصر الأستاذين صالح أبو رقيق وحسن العشماوي، ومن سورية

---

(٢٠) محمد المجذوب: علماء ومفكرون عرفتهم، ص٣٨٨.

الأساتذة عصام العطار وعبدالكريم عثمان، وحضر الاجتماع الأستاذ (فلان) عن الفئة (الأخرى).

وطرحت الأفكار بصراحة، وفسح مجال القول لمن شاء، ووجد الأخ (فلان) الفرصة مواتية لتفجير ما حمل من ألغام، فإذا هو يقول في لهجة مضغوطة لم يستطع أن يلطفها: «هناك أسئلة تطلق ولا نعرف بماذا نجيب عليها..

أولاً.. مصروف الأستاذ السباعي في أثناء وجوده في لبنان طوال زمن النفي.. من أين أتى به؟ ثم هناك مبلغ من المال كان قد قبضه من الأستاذ (أمين..) قبل سفره إلى فرنسا لنوال الدكتوراه.. كيف تصرف به؟ وبأي حق؟».

ووجمت الألسن، وغامت الوجوه تحت غشاء الدهشة المرة، إذ لم يكن أحد منا يتوقع أن تصل الخصومة في القوم إلى حد اتهام الرجل الذي وهب كل شيء في سبيل الدعوة.

ولكن وجهاً واحداً لم تزده هذه الجرأة إلا إشراقاً وابتساماً، هو وجه السباعي، الذي ظل محتفظاً بهدوئه واطمئنانه المألوف في مثل هذه المجالس الخاصة، كأن شيئاً مؤسفاً لم يحدث! وكان عليه أن يجيب، فقال: «أما مصاريف المنفى فيخجلني أن أضطر لكشف الستر عن وضع لا يخص أحداً سواي، وهو أنني كنت اقترضها من ابن عمي عبدالسلام السباعي في بيروت، حتى بلغت ديوني بسبب ذلك قرابة العشرين ألف ليرة. ولقد كان في وسعي أن أنجو من هذه الديون لو قبلت معونة أخ واحد من الكويت.. لقد بعث إليّ بالسيد رفعة الأيتوني يقول: «إنك موقوف عن العمل، ولا مورد لك ولأسرتك، وأن أخاك هذا كلفني أن أقدم إليك راتباً

شهرياً ريثما تنكشف محنتك».

ولكنني رجوت من السيد الأيتوني أن يرفع إلى الأخ الكويتي شكري على مروءته، ويؤكد له أنني في غير حاجة إلى شيء من ذلك، فألح وطلب إليّ أن أعد ذلك من باب الاقتراض فقلت: إنني أقترض من ابن عمي، ولا أحب أن أكون مديناً لغيره.

وهنا طلب الأستاذ عبدالكريم عثمان الإذن بالكلام والتفت إلى الأستاذ (فلان) يقول: أتذكر يوم كذا.. وكنا نتحدث عن الأستاذ السباعي فقلت لي: حقاً إن الرجل مظلوم.. وضربت لي مثلاً على ذلك بأنه قد تلقى من الدكتور (أمين..) هبة باسم الدعوة فدفعها إليك بدوره لتنفقها على مصالح الجماعة، وقد فعلت. ثم قلت: ومع ذلك فإن بعض الألسنة غير النظيفة تريد أن تتحرك بالباطل لتتهم الرجل بأنه استأثر بالهبة لنفسه!

وأطرق (فلان).. وقد تذكر كل شيء، ولكنه لم ينطق بحرف.. ثم انفض الاجتماع لصلاة الجمعة، ففارقنا إلى غير رجعة!».

● **الصبر والتحمل:**

في السنوات الأخيرة من حياته هجم عليه المرض واستمر ثماني سنوات حمل خلالها من الآلام ما لا يقدر على حمله رجال من أولي العزم إلا من كان له صبر الأنبياء.

وضرب الأستاذ السباعي خلال مراحل مرضه أروع آيات الصبر الجميل مع ما فيه من الرضا والتسليم لقضاء الله.. فكان صبره آية كبرى من آيات إيمانه، ومظهراً متفرداً من مظاهر شخصيته، فقد كان رائع الصبر والرضى بحكم الله جل وعلا، يقبل أمر الله ولا يعترض، مقراً بوجود حكمة لله ولو كانت خافية عليه، وكم كان يرجع إلى التسليم والدعاء عن إيمان

عميق غير تارك أي سبب من الأسباب يستطيع الأخذ به.

كان هذا شأنه في شبابه، وشدة بأسه وتوقد عزيمته، حتى إذا نزل به فجأة مرضه العضال، وطوقته الآلام المبرحة من كل جانب وهو ما يزال في عنفوان الرجولة.. تقبّل حكم الله بإيمان راسخ وشجاعة فائقة، ولم ين عن الحمد والتسبيح والاستغفار لله، كما لم يغادر وسيلة من وسائل الطب الحديث وغيره إلا أخذ بها وسافر لها، تاركاً مآل الأمر إلى الله تعالى، داعياً إياه أن يكشف عنه البلاء، ويلهمه مزيداً من الصبر والشكر على الابتلاء.

وكانت حياته في المرحلة الأخيرة المريرة من عمره قدوة حسنة مثلى، وتعبيراً نموذجياً عن معنى الصبر في الإسلام، فإنه رحمه الله لم ينقطع خلال مرضه الطويل وعلاجه الدؤوب وآلامه الملحة عن ممارسة ذاته ورجولته والنهوض بواجباته كإنسان صاحب دعوة حق وداعية مؤمن مسلم.

يقول الدكتور حسن هويدي[٢١]: «ولقد رأيته بعد مرضه، يتكىء على العصا، غادياً إلى الجامعة ورائحاً، في الوقت الذي قعد فيه الأقوياء وخمل فيه الأصحاء، ويا ربّ مريض مشلول، أشدّ من سيف مسلول، وما كان استمراره في الجهاد رحمه الله على الرغم من شلله وإصابة قلبه، وضغط دمه، إلا دلالة صادقة، وحجة ساطعة، على أن الرجل سجيته الجهاد، وطبيعته الكفاح، وغريزته التضحية، وفطرته الشجاعة والفداء، فأنّى يجد الرياء إلى نفسه سبيلاً، أو الفتور إلى بأسه مسلكاً، أو التردد إلى عزيمته منفذاً، فسبحان من منحه وأعطاه، وتفضل عليه وأرضاه!

ولهذه الفطرة السامية النقية استمر أكرمه الله في جهاده، بقلمه ولسانه، وروحه وجثمانه، في حالتي صحته ومرضه، حتى وافته المنية وهو

---

(٢١) عبدالعزيز الحاج مصطفى: كتاب مصطفى السباعي رجل فكر، ص١٢.

عاكف على الكتاب يدافع عن السّنة العليّة، فأعظم به من جهاد مستمر إلى القبر، متصل إلى الآخرة، ومرتفع إلى السماء».

من سماته وصفاته:

كان السباعي من رواد الحركة الإسلامية العالمية، ومن كبار المجاهدين.. كان فارساً للسيف والقلم والمنبر والمحراب.. كان فقيهاً متبصراً، وعالماً واعياً بصيراً بأحوال أمّته.. كان أبيّ النفس، كبير القلب، وكانت روحه أعظم من جسده، فلم يستطع جسده أن يوفي متطلبات روحه[٢٢].. وكان رحمه الله يتصف بالكثير من صفات الرجولة.. ومن هذه الصفات:

● **الأخوّة والبذل:**

السباعي رجل فذ، وإنسان مفضال، وشخصية لامعة جامعة.. حباه الله موهبة كريمة، وفطرة سليمة، فغذّاها بالعلم وزكاها بالفضائل والمناقب..

كان رحمه الله يتمتع بسجايا الخير وأخلاق الصفوة ومواقف الرجولة.. وكان صاحب مواقف نبيلة مع إخوانه.. كان أريحياً كريماً، يتحرى النهوض بواجب الأخوّة والتكريم، حتى أنه ليتصدى لاستضافة فضلاء الرجال الذين يؤمون البلاد، شاعراً بأن ذلك حق عليه، ما يسوغ له التخلي عنه ولو كان في ضيق، من أوضاعه وأعماله ووجباته العامة والخاصة، وهذا من أدب الإسلام ومن المتابعة لخلق الرسول عليه الصلاة والسلام في سيرته الندية العطرة..

وكان السباعي يهتبل هذه المناسبات ليربط فيها بين ضيوفه وزوّاره

---

(٢٢) الدكتور حسن هويدي.. مقابلة معه في ١٩٩٣/١١/٣٠.

وبين الدعوة الإسلامية ورجالها في إطار من المودة السمحة . . فكان منزله في مثل هذه المناسبات ـ وما أكثرها ـ مجتمعاً أدبياً وملتقى أخوياً . .

هذا فضلاً عن إقبال نفسه وسخاء طبعه في نجدة إخوانه والإسهام في كل أعمال الخير الخاصة والعامة بأوفر نصيب يقدر عليه .

يقول الشيخ عبدالفتاح أبو غدة : «أذكر أنه توفي بعض ذوي الفضل والعلم على حال ضيقه اقتضت رفد أسرته ، فذاكرته في ذلك فكانت يده أجود الأيادي وأكرمها[٢٣]» .

وكان رحمه الله يؤاخي الإنسان فيكون وفيّاً لأخوّته ، محسناً الظن به ، يذود عنه قالة السوء ، ويحتفظ له بمنزلة الصادقين ، ويلتمس لهفواته الأعذار ما دام يجد إلى ذلك سبيلاً . بعيداً عن التملق والنفاق والمجاملة بالباطل .

وكان لا يبخل برأيه السديد على من استشاره ، فيخلص له النصيحة ، ويمحضه الود ، ويعطيه من وقته أغلاه ، أداء لحق هذا الإسلام الذي منحه الله فهمه والنهوض به والدعوة إليه .

● **القدوة الحسنة** : كان السباعي مناراً هادياً ، وقدوة للأجيال في جوانب كثيرة ومجالات متعددة . . كان قدوة في ميدان الدعوة إلى الإسلام ، وقدوة في ميدان الجهاد والكفاح الوطني ، وقدوة في ميدان العلم والسياسة ، والفكر والصحافة ، والخدمة الاجتماعية . . بل وكان قدوة في كل موقف من مواقف حياته . .

كان طاقة جبارة من النشاط المتوقد الذي لا يعرف الملل ولا الفتور . .

---

(٢٣) مجلة حضارة الإسلام ، الأعداد ٤ ، ٥ ، ٦ ، السنة الخامسة عام ١٩٦٤ ، ص١٧٢ .

فليس غريباً أن يخوض الميادين المختلفة، ويكافح في جهات متعددة، ثم ينجح ويتفوق في كل هذه الميادين[٢٤].

يقول الدكتور حسن هويدي، بعد وفاة الدكتور السباعي بسنتين: «إن في الحياة عبراً لا تنسى، ومآثر لا تبلى، ومثلاً حية ناطقة على مرّ الزمن ترسم الطريق للشاردين، وتنير السبيل للسالكين، فتقوي العزم، وتذكي الحزم، وتحدو الركب. وإن كانت هذه العبر تتجلى تاريخياً في حياة الأمم، فإنها تتجلى بارزة في الأفراد من الرجال، الذين تتجسّم فيهم الفضيلة، وتنطق حياتهم بالمكارم، حتى لكأن أحدهم فضيلة تتكلم أو شجاعة تتجسم، أو بلاغة ينبي عنها اللوح والقلم..

وإني لا أشهد بهذا انفعالاً لعاطفة، ولا مجاملة للباطل زائفة، ولكنها شهادة حق يمليها الواقع ويحس بها الضمير. فلقد رأيتنا أنا وصحبي لا نزال نحيا مع أبي حسان رحمه الله، في صدقه وشجاعته، في فدائه وتضحيته، في بلاغته وخطابته، في شعره ونثره، في علمه وتقواه، في هدفه ومرماه، في صبره ومضائه، في محنته وبلائه وقد مضى على وفاته ما يقارب السنتين.

نعم إن الذي يحيا هذه الحياة الفاضلة، ويحقق هذه المآثر العظيمة، ويضربها للناس مثلاً واضحاً، لا لبس فيه ولا غموض يشهد به العدو كما يشهد به الصديق، لا يمكن أن ينسى، أو تزول صورته الجميلة عن العين أو القلب، ولو مضى على وفائه مئات السنين بدل السنة أو السنتين[٢٥]».

● **عذوبة النفس وشفافية الذوق**: كان طيب الله ثراه عذب النفس،

---

(٢٤) حسني جرار: القدوة الصالحة، ص٢٠٦.

(٢٥) عبدالعزيز الحاج مصطفى: كتاب مصطفى السباعي رجل فكر، ص٩.

رقيق الحاشية، مرهف الذوق والشعور، يستجيب للدعابة ويجيدها، ولا يبذلها إلا في موطنها، وكم كان يستعين بذلك في محاضراته ودروسه عندما يتوقع من مستمعيه أن وطأة الجد كادت تثقل عليهم، فتكون شواهده الطريفة بما فيها من ملاءمة للمناسبة درساً جديداً أبلغ من الدروس والمحاضرة، وأنفذ في نفوس السامعين إلى مقاصده ومراميه العالية التي يتحدث عنها، حتى إذا تابع درسه وإلقاءه بعد ذلك عاد مستمعوه إلى متابعة سماعه بهمة جديدة وذهن متفتح ونشاط كبير.

وكان رحمه الله صافي النفس وفيّاً، محبّب العشرة، شهم الإخاء، سريع النجدة كريمها، تتأتى معه الطرف والنوادر الجميلة فيحدّث بها صحبه وهو يضحك ببراءة نقية قائلاً: أضيفوها إلى نوادر الحمصيين.

وكانت له مسامرات ومحاورات تفيض ذوقاً وعذوبة نفس مع صديقه الصفي وأخيه الكريم الشيخ محمد الحامد، وكثيراً ما كان يحلي بها مجالس خلانه وإخوانه.

وإن الإنسان قد يعجب ـ ولا عجب ـ حين يقرن بين وقار النابغة السباعي في مواطن الجد، ومخاشنته لأعداء الله والأمة، وانقباض نفسه عن المنافقين والنفعيين، وبين شفافية روحه، وانطلاق جنانه، وتلطف لسانه في معاشرة أحبائه وإخوانه. ولكن لا عجب فهو الفهم للإسلام والعمل به على بصيرة[٢٦].

● **إلتزام الحق**: كان السباعي يدعو إلى الحق ويدافع عنه وينصره، وإذا صادف أن اجتهد في أمر فكان له فيه رأي ولسواه رأي ثم.روجع في

---

(٢٦) عبدالفتاح أبو غدة: مجلة حضارة الإسلام، الأعداد ٤، ٥، ٦، عام ١٩٦٤، ص١٧٤.

ذلك ونوقش، بسط حجته، ودافع عن وجهة نظره بروح المنصف المتحري الباحث عن الحق، حتى إذا تبينت له فيما كان يراه ويقوله وجهة جديدة محص فيها الرأي، وكانت نتيجة ذلك التزامه بالحق الصراح والمعالنة به، لا يهمه في أي جانب كان، دون تعصب لرأيه أو حرص على انتصار وجهة نظره، بل إنه ليشدّ، بقوة على الرأي الجديد الحق، مدافعاً عنه أشد من دفاعه عن رأيه الذي كان يراه، لأنه تبدّت له معالم الحق فيه أكثر..

وقد كان يُشهد بعض خلصائه وإخوانه ـ في كثير من المناسبات ـ على ما رجع عنه، كأمر «اللحية» فقد انتهى إلى إطلاقها، وأشهر أنها من سنن الإسلام وشعائره الكريمة الغالية، وكأمر «التأميم» الذي كان له فيه رأي ثم تغير رأيه فيه[٢٧].

● **عزّة النفس:**

كان السباعي رحمه الله عزيز النفس، ولا يقبل معونة من أحد.. لا من إخوانه ولا من غيرهم..

بعد إصابته بالشلل عرض عليه إخوانه مبلغاً شهرياً من المال فرفض، مع أنه كان في أشد الحاجة إليه.. فكان يستدين عند الحاجة ولا يأخذ من أحد شيئاً.. وكان دائماً يقول: أنا والحمد لله أقوم بالتدريس وتأليف الكتب وعندي ما يكفيني..

وكان رحمه الله حتى الخدمات الشخصية من شباب الدعوة كان لا يقبلها، فكان يخدم نفسه ويقضي حاجاته بنفسه.. وإذا خدمه أحد كان يشعر بخجل شديد[٢٨].

---

(٢٧) مجلة حضارة الإسلام، الأعداد ٤، ٥، ٦، عام ١٩٦٤، ص١٧٣.

(٢٨) عادل كنعان.. مقابلة معه في ١٩٩٣/١٢/٢٠.

● **تأثيره في إخوانه وشدة حبهم له:**

قابلت عدداً كبيراً من الإخـوة السـوريين ومن ذوي الاتجـاهـات المختلفة، لاستكمل الكتابة عن الأستاذ السباعي.. فوجدت تأثير الأستاذ ظاهـراً فيهم جميعاً، ورأيت إجماعاً على حب الرجل والتأثّر به.. ومن الذين قابلتهم السيد موفق الشاويش (أبو زيد)، فقررت أن أدوّن مقابلته كنموذج لهذا الحب والتقدير.. واستمعت لأبي زيد وهو يروي الكثير مما يحفـظه من عبـارات السباعي وحكمه، والتي مرّ عليها أكثر من أربعين عاماً، كقوله: «أذلّت الشهوة أعناق الرجال، وأذلّ الدولار مَن كنّا نعدّهم من الأبطال».. ثم قال: لا يوجد عندي أعز من السباعي رحمه الله.. كنت دائمـاً أمشي خلفـه في المـظاهـرات، وأتمنى لو أن تصيبني ألف رصاصة ولا تصيبه رصاصة واحدة[٢٩].

● **سرعة البديهة والنكتة الحاضرة:**

كان السبـاعي حاضـر البـديهـة سريع النكتـة.. ونكاته الحمصية مشهورة بين معارفه وإخوانه.. فمرة كان يدرّس في كلية الحقوق بجامعة دمشق، فقال: «من كان بسن الزواج ولم يتزوج فهو أخ للشياطين» وذلك قبل أن يتزوج، فسأله أحد الطلاب: هل أنتم متزوجون؟ فقال: لا.. أنا أخوكم[٣٠].

---

(٢٩) موفق الشاويش.. مقابلة معه في ١٩٩٤/١/٨.

(٣٠) الدكتور محمد أمير العرقسوسي.. مقابلة معه أجراها الأستاذ رضوان دعبول في ١٩٩٣/١١/١٠.